المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر
I.S.H.T.C
Institut Supérieur de l'Histoire de la Tunisie Contemporaine

إلى روح الحبيب بلعيد

روافد

مجلّة المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر

المحتوى

دراسات

- العبوديّة في تونس بين المنع والإباحة (1846-1890)

- الصحافة النسائية التونسية : مجلّة "الإلهام" نموذجا (1955-1956)

- الديبلوماسية التونسية وأزمات الحرب الباردة (1956-1962)

متابعات

السنة الثلاثون،
العدد 29، 2024

جامعة منوبة

جامعة منوبة
المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر

روافد

ر. د. م. د. 7115-0330

مجلّة تاريخية دوريّة محكّمة

تصدر عن المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر

السنة الثلاثون، العدد 29، 2024

المدير المسؤول : خالد عبيد

رئيس التحرير : علي آيت ميهوب

هيئة التحرير:

عبد المجيد بلهادي - فاطمة جراد – فوزي السعداوي - بلال سعودي

- فيصل الشريف – علي الطيّب – علي اللطيف.

الهيئة العلميّة الاستشارية :

عادل بن يوسف – الهادي التيمومي – محمد الجربي - كمال جرفال – عبد اللطيف الحناشي - نور الدين الدقي

- كريمة ديراش - محمد ضيف الله – ميمون عزيزة - عميرة علية الصغير- محمد الأزهر الغربي

- بيار فرمران – فتحي ليسير- عبد الكريم الماجري - عمّار محنّد عامر- عبد الواحد المكني – عدنان منصر

- علي نورالدين - عبد الحميد الهلالي - البشير اليزيدي.

الكتابة : سعاد بن عبد الله بالي

يرجى من الراغبين في نشر أعمالهم بالمجلّة أن يتصلوا بـــ :

الهاتف : 950 600 71 (216+) - 699 600 71 (216+) / **الفاكس :** 277 600 71 (216+)

البريد الإلكتروني : contact-rawafid@ishtc.rnu.tn

editor-rawafid@ishtc.rnu.tn

موقع الواب : http://www.ishtc.run.tn

الفايسبوك : https://fr.fr.facebook.com/ishtctunisie

السعر : 20 د.ت. / 20 يورو

التصميم و الطباعة : **سوتيبا ڤرافيك**

الفـهـــرس

افتتاحية العدد **7**

دراسات

نورالدين الدقي، **العبوديّة في تونس بين المنع والإباحة (1846-1890)** **13**

محمد ضيف الله، **الصّحافة النّسائيّة التّونسيّة مجلّة «الإلهام» نموذجا (1955-1956)** **33**

عبد المجيد الجمل، **الديبلوماسية التونسية وأزمات الحرب الباردة (1956-1962)** **63**

متـــابعـــات

مختار العيّاشي، **علم التاريخ والتعلّمية في ضوء تطبيقات منهجيّة مجدّدة**، منوبة، مركز النشر الجامعي، 2025، تقديم : علي الطيّب **101**

مختار العيّاشي، **علم التاريخ والتّعلّمية في ضوء تطبيقات منهجيّة مجدّدة**، منوبة، مركز النشر الجامعي، 2025، 168 صفحة

تقديم: علي الطيّب

المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر
جامعة منوبة

في هذا الكتاب، ارتأى الأستاذ مختار العياشي المساهمة في معالجة مسألة هامة جدًّا، وهي المدارس التاريخية وإسهاماتها في إنتاج المعرفة عبر العصور، منذ نشأتها مع اليونان وصولًا إلى المنجزات الغربية، مرورًا بالفترة العربية الإسلامية. وقد خصّص حيزًا مهمًّا لانفتاح هذا العلم على العلوم المجاورة، أي دراسة التاريخ إبستيمولوجيًا.

كما أفرد مساحات وافية لتوضيح كيفية بناء المعرفة التاريخية من خلال التعلّمية والتطبيقات الميدانية والتجريبية، على غرار ما هو معمول به في العلوم التجريبية. وتُعدّ هذه الدراسة موجّهة إلى المختصّين وطلاّب المدارس والجامعات والجمهور العام على حدّ سواء.

سعى الأستاذ العياشي في هذا السياق إلى إرساء هندسة فكرية ومنهجيّة مجدّدة، عمادها وسائط بيداغوجية مختلفة ومتنوّعة ومخابر تطبيقية. وقد أشار في هذا الصدد إلى المتحف باعتباره مخبرًا تعلّميًا للتاريخ والتراث. كما لم يغفل عن دعوة الباحثين في مجال التاريخ إلى التجديد المنهجي، من خلال الاستئناس بالمصطلحات المستحدثة في بناء المعرفة التاريخية وعلاقتها بها، وانتهاج المقاربة البراغماتية.

ويشير الكاتب في مقدّمة عمله إلى أنّ بعض الجوانب، مثل إبستيمولوجيا التاريخ وأدواتها الاصطلاحية وتعلّمية التاريخ، لم تحظَ بالاهتمام الكافي، إضافة إلى قلّة الدراسات التي تناولت هذا المبحث

(ص 10). كما أشار إلى وجود ثغرات معرفية ومنهجية تشوب الكتابات التاريخية، خاصة على مستوى الأدوات التحليلية والمنهجية العلميّة المتّبعة، وعلاقتها بالتاريخانية، إلى جانب مسألة الوعي التاريخي لدى المهتمّين بعلم التاريخ.

ومن هنا تتحدّد مهنة المؤرخ وقدرته على الانفتاح على الفروع المعرفية الأخرى واستعمال أدواتها التحليلية لتفسير الظواهر التاريخية، وكيفية تمريرها إلى طلبته في إطار ما يُعرف بالاختصاص التوأم، أي التعلّمية، وخلق جيل من الباحثين يُثمّنون هذا التوجّه المنفتح على حقول معرفية أخرى، لا سيّما علم الاجتماع والفلسفة والأنثروبولوجيا، انتصارًا لسلطان العقل وترسيخًا للفكر النقدي لدى الباحث والقارئ على حدّ سواء.

ولتكريس هذا التوجّه وترسيخ البعد النقدي والعقلاني في البحث التاريخي، يرى المؤلّف ضرورة اعتماد المنهج المخبري التجريبي، كما هو الحال في علوم الفيزياء والطبيعة، والغاية من ذلك هدفان أساسيان:

- أولًا: تجديد الكتابة التاريخية على أسس منهجية علمية.
- ثانيًا: تطوير التدريس في إطار ما يُعرف بالتعلّمية.

وقد اعتمد الأستاذ العياشي في هذا العمل تخطيطًا يتكوّن من ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: أسس المعرفة التاريخية وتطور اتجاهاتها
- الفصل الثاني: تطبيقات بيانية
- الفصل الثالث: البراغماتية التاريخية

قام المؤلف في الفصل الأول بسرد التعريفات المتداولة لمفهومي التاريخ والتأريخ. وقد رجع بالخصوص إلى التعريف الذي صاغته مدرسة الحوليات، لا سيّما ما جاء

به المؤرخان «لوسيان فيفر» (Lucien Febvre) و«مارك بلوخ» (Marc Bloch)، حيث اعتبرا التاريخ «فيزياء اجتماعيّة تدرس الجسد الاجتماعي عبر الزمن والمجال»، فهو دراسة للمجتمعات في ديمومتها وفي بعدها الجغرافي (ص 16).

أمّا فيما يخصّ التأريخ، فهو يتطلّب فكرًا نقديًّا ونظرة ثاقبة لتحليل الوثائق وإعادة بناء الأحداث التي تعطي للحياة البشريّة ديناميكيّة منطقيّة ذات مغزى في سلّم الزمن، لا تخلو من الفرضيات والفكر التاريخاني. وإذا كان التاريخ يُعنى بالإنسان في الزمن والمجال الماضيين، فهو من خلال ذلك يسعى إلى دراسة الحاضر واستشراف المستقبل. وفي علاقة بالتاريخ ومدوّنة الذاكرة الإنسانيّة وتجارب المجتمعات البشريّة السابقة، فإن دور التأريخ إعادة بناء تلك التجارب وإخصابها حتى تكون مصدر إلهام واستنباط مشاريع وتصورات للحاضر والمستقبل.

وفي هذا الكتاب، قام الأستاذ مختار العياشي بعملية استقصاء وسرد سلس للاتجاهات الكبرى لمقاربات تدوين التاريخ (ص 18 وما بعدها)، من هيرودوت في القرن الخامس ق.م إلى إنتاج المدارس الغربية في القرن العشرين، مرورًا بالمؤرخين والإخباريين في البلاد العربية والإسلامية، وفي مقدّمتهم عبد الرحمان بن خلدون. وفي ما يخصّ البعد الإبستمولوجي في الكتابة التاريخية، ركّز بالخصوص على أعمال مدرسة الحوليات التي أدخلت في محاور اهتماماتها مواضيع كانت خارج حقل علم التاريخ، مثل تاريخ الذهنيات والحياة اليومية والطقوس وغيرها، في تداخل وترافد مع أدوات التحليل المنهجي ومقاربات العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى، وحتى العلوم التجريبية، وهو ما اصطلح على تسميته بالتاريخ الجديد، وخاصّة التركيز على تعلّميّة التاريخ باستخدام آليّة «الوضعية – المشكل»، التي تجبر الباحث على فكّ شفراتها والوصول إلى دقائقها في سياق البحث عن السببيّة وفهم الاستراتيجيات والمصالح المختلفة والمعقّدة التي تلفّ الأحداث والظواهر التاريخية في إطار زمني

ومكاني ما (ص 27). ولبلوغ أقصى ما يمكن من الموضوعية والتحليل العلمي، لابدّ من الاستئناس وتوظيف هذه العلوم المجاورة.

ولبناء المعرفة، لا بدّ على المؤرخ أن يتسلّح بأدوات تحليل في إطار استراتيجية واضحة ومعلنة. ومن هذه الأدوات المصطلحات العلمية التي اتُّفق على إقرارها وتوحيد تعريفها من قبل جميع المختصّين في مختلف علوم الإنسان والمجتمع، والتي لها نفس الوظيفة في محيطها المباشر، لا سيّما المتعلق بالمجتمع وعلاقته ببيئته، مثل الحراك الاجتماعي، المدرسة، التعليم، الإنتاج، إعادة الإنتاج، المصعد الاجتماعي، وغيرها من الدلالات التعبيريّة الاصطلاحية المثبتة في القواميس والموسوعات وتحظى باتفاق الجميع. ولتبسيط هذه الأفكار، أورد الكاتب مثال «الطاولة»، فهي لغةً صنيعة حرفيّة تُعرف بشكلها ولونها ووظيفتها، بينما الاصطلاح يلج إلى تحليل أكثر عمقًا يتعلّق بالمادة الخام المستعملة في صنعها، واليد العاملة، والزمن الذي استغرقه إنتاجها، وكلفتها، وسعرها، وقيمة الأرباح والخسارة عند الاتّجار بها. وهذا ما يُعبَّر عنه بـ«التاريخ الإشكالي» (ص 31 و32)، ويُعبَّر عن المصطلح بـ«الكلمة المفتاح»، وتستمدّ عمليّة بناء المصطلح بعض أدواتها من العلوم الرديفة كما أُشير إلى ذلك سابقًا، وخاصة علم الاقتصاد والإحصاء، اللّذان كان لهما أكثر المساهمات في تطوير البحث التاريخي.

إضافة إلى ذلك، فإنّ اعتماد المصطلحات يمكّن، بالضرورة، الباحث من استنباط الفرضيّات والمقاربات، وبالتالي بناء المعرفة على مرتكزين أساسيين، هما: إعادة تركيب وكتابة الماضي، وكذلك الانشغالات المعاصرة، خيطهما الناظم هو قدرة الباحثين، بمختلف مدارسهم، على التخمين والمعالجة والمقارنة بين المتغيّرات والأحداث في الصيرورة التاريخية. وليس من الضروري أن تؤدّي هذه الفرضيات إلى نفس النتائج، لأنّها نسبيّة، كالحقيقة التي هي نسبيّة، لأنها ليست واحدة، بل حقائق مختلفة، لكنها منطقيّة، ولها من الشرعيّة ما يجعلها فرضيّة محتملة

ولأنّ التاريخ، بصفته خطابًا علميًّا حول المعرفة، فإنّ البحث في ماهيته ومعرفته، وإكساب مادّته بعدًا ديناميكيًّا، يقتضي اعتماد المقاربة الإبستيمولوجيّة، وهناك معجم اصطلاحي خاص بعلم التاريخ دون غيره، وجب على المؤرّخ وضعه على طاولة البحث، كالحدث، والرواية التاريخية، ومصطلح الزمن التاريخي، وطبيعته، وتحقيبه، وتطوره من الوحدة إلى تعدّد الأزمنة التاريخيّة، وعلاقته بالتحليل الأنثروبولوجي.

في هذا الكتاب أيضًا، لم ينس الأستاذ مختار العياشي اختصاصه المهني كمدرّس للتاريخ (الفصل الثاني)، لما تمنحه هذه المهنة من تجربة في بيداغوجيا ونشر الوعي بالتاريخ، وجعله من مقوّمات الثقافة لدى الطلاب والجمهور العام، لا سيّما في الفترات الأخيرة من تاريخ البلاد، عندما أصبح التاريخ شأنًا عامًا ومحور جدل ونقاشات وتجاذبات من هنا وهناك، خاصة في بعض المسائل المثيرة والحسّاسة، كالهويّة التونسية، وعلاقة دولة الاستقلال بفرنسا. ورغم تراجع هذا الحراك، والذي يمكن إرجاعه - حسب ما بيّنه الأستاذ العياشي، ونحن متفقون معه تمامًا - إلى بيداغوجيا تعليم التاريخ وغياب تعلّميته، وعدم ارتقاء هذه الثقافة إلى مستوى الوعي والمشاركة في بنائه، وإنتاج المعرفة من خلال بيداغوجيا الوساطات والعمل المخبري، وهي الأدوات الضروريّة التي تمكّن المهتمّ بعلم التاريخ من الملاحظة والتحليل، بالاعتماد على التفكير النقدي، والنزول بالمعرفة التاريخيّة من إطارها النظري المجرّد إلى الواقع المادّي الملموس، والمعبّر عنه بالبراغماتيّة التاريخيّة (الفصل الثالث)، وهو اتجاه فلسفي أنجلوسكسوني ظهر في الولايات المتّحدة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وانتشر في بقيّة العالم، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، واهتمّ أساسًا بالبيداغوجيا و«التربية الجديدة» أو «المتقدّمة»، ومن روّادها «جون ديوي» 1859-1952 (John Dewey) و«جيمس ويليام» 1842-1910 (James William).

ويرى هذا الاتّجاه أنّ الفلسفة يمكن أن تكون أداة توظيفيّة لدراسة وفهم التحوّلات الاجتماعيّة المتقدّمة، بالاعتماد على التجربة ووسائل

الإيضاح والاستبيان... ومن هذه الوجهة، وحسب ما ورد في عمل الأستاذ العياشي، فالتاريخ علم براغماتي بالأساس، مثله مثل العلوم الأخرى التي تجاوزت الأطر النظرية المجرّدة، ونزلت على الأرض إلى ميدان التجربة والتطبيق، لأنّه دراسة للفيزياء الاجتماعيّة وغيرها من المواضيع والإشكاليات.

أمّا فيما يخصّ العلاقة بالمعرفة التاريخيّة لدى الجمهور العام، وحتّى يكون التاريخ لكلّ مواطن، يرى الأستاذ العيّاشي في هذا الصدد، أنّه لا بدّ من استراتيجية في التواصل بين المختصّين والمريدين، وهنا المسؤولية ملقاة على عاتق الفاعل، وهو المدرّس، الذي يجب أن يستعمل الأدوات الكفيلة بإنجاح عمليّة التبليغ والاستيعاب لدى المتلقّي، والاتصال الذكي المرتكز بالخصوص على إثارة الفضول العلمي، وتحفيز المتعلّم، وترغيبه في التعلّم، لبلوغ درجة النشوة ومتعة الفهم والوعي. وهذا الطرح الذي أورده الأستاذ العيّاشي، أراد من خلاله إماطة اللثام عن حقيقة مزعجة، وهي ضعف الاهتمام بالإنسانيات، وفي مقدّمتها اختصاص التاريخ لدى طلاب الجامعة والمعاهد والمدارس. ويعزي ذلك إلى الطرق التعلّميّة العلميّة لهذه المادّة، مما جعل الوعي بأهميتها ضعيفًا، وخاصة في التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي. وهذا مرتبط، بلا شكّ، بالسلّم القيمي، وضارب هذه المادّة، وعلاقة هذا الاختصاص في الجامعة بسوق الشغل والنجاح المادّي، ممّا أدّى إلى النفور من هذا الاختصاص.

ومن أسباب الأزمة في العلوم الإنسانيّة عمومًا، عدم جدوى المدوّنة البيداغوجيّة وطرق التدريس التلقيني، وسلّم الضوارب، والزمن المدرسي، ونسبة التحصيل العلمي، وغيرها من الأسباب. ولتجاوز هذه الصعوبات، يرى الكاتب أنّ الأمر يتعلّق، أساسًا، بالعلاقة بالمعرفة التاريخيّة، التي يجب أن تكون تأمليّة-نقديّة، والتي تؤدّي، بالضرورة، إلى التحليل العلمي، وإلى إنتاج معرفة عالمة، كما ذُكر سالفًا، ممّا يمكّن الدّارس والباحث من تملّكها واستيعابها، ويتيح له الكفاءة، وكسب ناصية

البحث العقلاني والعلميّ، وتجنّب المعرفة التجميعيّة التراكميّة للمعطيات التاريخية (compilation)، وبالتالي تجنّب بيداغوجيا النقل والتلقين. ويرى الكاتب أيضًا، في هذا المضمار، أنّه من الواجب مراجعة التعاطي التقليدي مع مادة التاريخ في الجامعة، بحثًا وتدريسًا، بهدف إعادة تأهيله العلمي. والأمر سيّان في الوسط المدرسي، إذ يجب إعادة الاعتبار لهذه المادّة، والقطع نهائيًّا مع عدم اكتراث التلاميذ بهذا الحقل المعرفي، وإعادة الاعتبار للمواد الاجتماعيّة والإنسانيّة بالمدوّنة البيداغوجيّة، على غرار المواد العلميّة الأخرى (ص 99)، نظرًا لأهميّة هذه المواد في هندسة الإنسان والمواطن، وما تتطلّبه هذه الهندسة من حاجيات ثقافيّة وتربويّة واجتماعيّة، ووعي بالهويّة، وبالمبادئ الكونيّة، وما أنتجته البشريّة من حضارة تنمّ عن درجات عالية للذكاء في بناء هذه الحضارة. وهذه المعرفة التاريخية تمكّن، دون ريب، من معرفة الحاضر واستشراف المستقبل.

ولتجسيد هذه المعرفة بالتاريخ في بعده الإنساني والكوني وترسيخها في بنية الوعي والثقافة لدى الناشئة بالخصوص، هناك العديد من الدعائم والوسائط والتقنيات التي تكيّف هذه المعرفة وفق الحاجيات المطلوبة، وتتفرّع إلى تقليدية وأخرى حديثة. أمّا الأولى، فهي الكلاسيكية، مثل الوثائق بأنواعها (مصوّرة ومكتوبة) من أرشيف ومخطوطات، والسبورة العادية، والكتاب المدرسي، والمدرسة، والصورة الثابتة، والخرائط، والأفلام الوثائقية، والتسجيلات. والثانية تتمثل في التكنولوجيا الرقمية، والملتيميديا، والمعالجة الرقمية بالحاسوب، وكذلك الفيديو، والسبورة التفاعلية، والاستبيان، والرسوم البيانية ثلاثيّة الأبعاد، والزيارات الميدانية لمختلف المعالم الأثرية والمتاحف المختلفة... (ص 103-122).

ولإثراء هذه الآراء حول تبليغ المعرفة التاريخية عن طريق الوسائط البيداغوجية والمقاربة المخبرية التجريبية، أورد لنا مثالًا تطبيقيًا حول هذا الموضوع، وهو المقاربة المتحفية من خلال متحفيّة التربية، لتثمين

وبلورة ما يستوعبه الدارسون للتاريخ والمهتمّون به على أرضيّة الواقع المادي الملموس، بدراسة ما تؤويه المتاحف من تراث مادي وغير مادي أنتجته الحضارة الإنسانية في مختلف مراحل التاريخ. فالمتحف، حسب ما أورده الأستاذ العياشي في هذا العمل، هو مخبر بحث علمي يتمّ توظيف محتوياته لأهداف معرفية وثقافية وتربوية لا تقلّ أهميته عن وظيفة المدرسة، وهذا العمل المخبري يساعد على تنمية مهارات النقد والتحليل الدقيق، وتقليل الاعتماد على الكتاب المدرسي، ويُعدّ حليفًا عضويًّا للمدرسة في العملية التعلمية وإنتاج الوعي، والرغبة في التعلّم الذاتي، وتثبيت المعلومات المكتسبة، وحبّ الاطّلاع لدى الدارس ورواد المتحف من الزائرين ومحبّي التاريخ.

ويؤكّد الأستاذ مختار العيّاشي أنّ الغاية من المقاربة التعلّمية للتراث التربوي بمتحف التربية بتونس، هي تجميع وترتيب وإعادة تركيب وتطبيق منطقي لتراث المدرسة التونسية، منذ ظهور الكتابة الفينيقية قبل 32 قرنًا، ثم انتشار الكتابات والأبجديات الأخرى السامية التي رافقتها بسواحل إفريقية، تزامنًا مع حركة الأفراد والسلع والأفكار المصاحبة لها. وتهدف هذه المقاربة أيضًا إلى التعريف بهذا الموروث الحضاري وتملّك المعارف التي يزخر بها التاريخ بطريقة تُتمّم دور المدرسة، عبر مقاربة تفاعليّة تمكّن من «ضخّ نصيب من المنطق والذاكرة» على حدّ تعبير «أندري سيغال» (André Ségal).

خلاصة القول، إنّ هذا الكتاب هو سرديّة ممتعة في معاني التاريخ والتأريخ ومناهج كتابته إبستيمولوجيًا، بانفتاحه على بقيّة العلوم المجاورة له، لا سيّما ما أنجزته المدارس الحديثة مثل مدرسة الحوليات و«البراغماتية التاريخية» الأنجلوسكسونية المتأثّرة بالفلسفة. لذلك فإنّ التاريخ لا يُكتب بالتاريخ فقط.

وما يُثمّن في عمل الأستاذ العياشي - وهو أمر لا بدّ من الانتباه إليه - إعطاؤه أهميّة كبرى وأساسيّة للتعلّمية في المعرفة التاريخيّة من خلال المنهج التجريبي المعتمد على الوسائط البيداغوجيّة المتنوّعة والمختلفة والمتاحة اليوم على نطاق واسع في إطار العولمة والثورة الرقميّة، وهو رهان لا بدّ على الباحثين والمختصّين في علم التاريخ من اكتسابه، وتجاوز المدونات البيداغوجيّة والمنهجيّة التقليدية، التي ما زالت سائدة لدى عموم الباحثين، ولدى نسبة كبيرة من النخب والمدرّسين لمادّة التاريخ في مختلف مراحل التعليم في تونس. وعليه، لا بدّ من التنويه بأهمية هذا العمل في المنهج والبيداغوجيا في علم التاريخ، وهو مرجع موثوق يأتي لسدّ فجوة معرفية لدى الطلبة والباحثين في اختصاص التاريخ، لا تخفى على أحد.